سلسلة المقالات

المنهجية

(٢٩)

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

هذا بَيَانٌ للنَّاسِ

كتبه

الباحث الدكتور/عيد أبو السعود الكيَّال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده، ﷺ أمَّا بعد:

فقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٣٨):

«أي: ذوو العقول وهي الألباب، جمع لبّ وهو العقل.

قال الحسن البصري: «واللَّه ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتىٰ إنَّ أحدهم ليقول: قرآت القرآن كله [يعني: حفظته] ما يُرَىٰ له القرآن في خلق ولا عمل» رواه ابن أبي حاتم». اهـ.

قلت: هذا المراد من كتاب اللَّه وذلك لا يكون إلَّا لأوْلي الألباب، الذين قال اللَّه فيهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن كثير في: «تفسيره» (٧/ ٢٦١):

«وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: لُبٌّ يعي به، قال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: استمع الكلام فوعاه وتعقّله وتفهّمه بِلُبِّه، وقال مجاهد: يعني: لا يحدّث نفسه بغيره ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال: شاهد بالقلب.

وقَالَ الضحَّاك: العرب تقول: ألقَىٰ فلانٌ سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد، يقول: غير غائب، وهكذا قال الثوريُّ وغير واحد». اهـ.

قلت: وعلىٰ ضوء ما تقدم آنفًا؛ كانت هذه المقالة لمن ألقىٰ السمع وهو شهيد.

فقد قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ومثلها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾ [الرعد: ١١].

ولقد قامت هذه المقالة علىٰ هاتين الآيتين، وما تفرَّع منهما من المعاني والفوائد، وذلك كما يأتي:

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٠٧):

«قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾: أخبر تعالىٰ في هذه الآية أنّه لا يغير ما بقوم حتىٰ يقع منهم تغيير؛ إمَّا منهم، أوْ من الناظر لهم، أوْ ممَّن هو منهم بسبب، كما غيّر اللَّه بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم [لمَّا خالفوا نهي رسول اللَّه ﷺ في عدم تركهم مكانهم فوق الجبل]، إلىٰ غير هذا من أمثلة الشريعة، فليس معنىٰ الآية: أنَّه ليس ينزل بأحد عقوبة إلَّا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال رسول اللَّه ﷺ وقد سُئل: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم إذا كثر الخبث**» [رواه البخاري في «صحيحه» (**٣٥٩٨**) والخبث المعاصي والفجور والفسوق وغيره].

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾؛ أي: هلاكًا وعذابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، وقيل: إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسْقام فلا مَرَدَّ لبلائه، وقيل: إذا أراد اللَّه بقوم سوءًا أعمىٰ أبصارهم حتىٰ يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه، فيمشون إلىٰ هلاكهم حتىٰ يبحث أحدهم عن حتفه بكفّه، ويسعىٰ بقدمه إلىٰ إراقة دمه، قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾؛ أي: ملجأ، وهو معنىٰ قول السُّدِّي، وقيل: مِنْ ناصر

يمنعهم من عذاب اللَّه، وقال الشاعر:

ما في السماء سوىٰ الرحمن من والٍ

ووالٍ ووليّ، كقادر وقدير». اهـ.

قلت: ومَا قاله القرطبيّ تجده في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وعلىٰ نقيضه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وأكد معنىٰ الآيتين محل البحث ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٥٠) قال:

«يخبر تعالىٰ عن تمام عدله وقسطه في حكمه، بأنه تعالىٰ لا يُغيّر نعمة أنعمها علىٰ أحد إلَّا بسبب ذنب ارتكبه . . . وقوله تعالىٰ -أي: بعد الآية-: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤]؛ أي: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النّعم التي أسداها إليهم من جنَّات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم اللَّه في ذلك، بل كانوا هم الظالمين». اهـ.

وقال كذلك ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٣):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]:

يحذر تعالىٰ عباده المؤمنين «فتنة»؛ أي: اختبارًا ومحنة، يَعُمّ بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بنفسه، بل يعمهما،

بحيث لم تدفع وترفع». اهـ.

قلت: وذكر أهل التفسير بجانب هذه الآية وفي سياقها قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۖ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

قال القرطبي في «جامعه» (٧/ ٣١٠) في معنىٰ الآية الأولىٰ:

«قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] هذا تعليل: أي هذا العقاب لهم، لأنهم غيّروا وبدّلوا، ونعمة اللَّه علىٰ قريش الخصيب والسّعة والأمن والعافية، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؟! [العنكبوت: ٦٧] الآية.

وقال السّدي: نعمة اللَّه عليهم محمد ﷺ فكفروا به ولم يؤمنوا به، فَنُقل إلىٰ المدينة، وحلّ بهم العقاب». اهـ.

قلت: وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠، ٣١].

قال السعدي في: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان» [ص: ٧٢٥]:

«يخبر تعالىٰ أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم، وفيما يحبّون ويكون عزيزًا عليهم؛ إلَّا بسبب ما قدّمته أيديهم من السيئات، وأنَّ ما يعفو اللَّهُ عنه أكثر، فإنَّ اللَّه لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وليس إهمالًا منه تعالىٰ تأخير العقوبات ولا عجزًا [بل حكمة ورحمة وحلمًا].

قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: معجزين قدرة اللَّه عليكم، بل

أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عمَّا ينفذه اللَّه فيكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾: يتولّاهم، فَيُحَصِّل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار». اهـ.

وقال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

قال الحافظ في: «تفسير القرآن العظيم»: (٤/ ٣٦٥):

«يخبر تعالىٰ عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنّه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك علىٰ ظهر الأرض من دابّة؛ أي: لأهلك جميع دوابّ الأرض، ولكنّ الرب ﷻ يحلم ويستر، ويُنْظِرُ إلىٰ أجلٍ مَسَمًّىٰ؛ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذْ لو فعل ذلك بهم لما أبقَىٰ أحدًا.

قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجُعْل أن يُعذّب بذنب بني آدم، وقرأ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وكذا روىٰ الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال: قال عبد اللَّه بن مسعود: كاد الجُعْل أن يُهلك في جُحره بخطيئة بني آدم. [والجُعْل حشرة كالخنفساء].

وقال ابن جرير [في «تفسيره» رقم (٢١٥٩٩)]:

حدثني. . . . عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة رجلًا يقول: إنَّ الظالم لا يضرّ إلَّا نفسه، قال: فالتفت إليه فقال: بلىٰ واللَّه، حتىٰ إنَّ الحُبَارىٰ لتموت في وكرها بظلم الظالم». اهـ.

والحبارىٰ: طائر طويل الرجل.

وقال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٢٣٠- ٢٣١):

«قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ يعني: من الذنوب ﴿مَا

تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان ممَّا دبَّ ودرج.

قال قتادة: وقد فُعِلَ ذلك زمن نوح عليه السلام.

وقال الكلبيّ: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ يريد الجن والإنس دون غيرهما؛ لأنهما مُكلفان بالعقل.

وقال ابن جرير والأخفش والحسن بن الفضل: أراد بالدَّابة هنا النَّاس وحدهم دون غيرهم.

قلت [يعني: القرطبيّ]: والأول الأظهر والأصح؛ لأنّه عن صحابيٍّ كبير، قال ابن مسعود: كاد الجعل أن يعذّب في جُحره بذنب ابن آدم.

وقال يحيىٰ بن أبي كثير: أمر رجل بالمعروف ونهي عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك، فإنَّ الظالم لا يضرّ إلَّا نفسه، فقال أبو هريرة: كذبت! واللَّه الذي لا إله إلَّا هو، والذي نفسي بيده إنَّ الحُبارىٰ لتموت هَزْلًا في وَكْرِها بظلم الظالم.

وقال الثُّمالي ويحيىٰ بن سلام ومجاهد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]:

«يحبس اللَّه المطر فيهلك كل شيء، وقد مضىٰ في البقرة نحو ذلك عن عكرمة ومجاهد: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم». اهـ.

قلت: فعلىٰ ضوء ما تقدم من الآيات والتفاسير والمعاني، يعلم الحصيف الفطن أنَّ الأمر عظيم جلل، وأنه لو لم يغيّر النَّاس أنفسهم من المعصية إلىٰ الطاعة، ومن الفسوق والفجور إلىٰ التقوىٰ والأعمال الصالحة، لهلكت العباد والبلاد والجن والإنس وجميع دوابّ الأرض ما دبَّ منها وما درج، بطيرها وهوامها وحشراتها وما كان في البحار والأنهار، لولا رحمة اللَّه وحلمه وصبره

علىٰ معاصي الناس.

وهذا يحدث في زمن دون زمن، وفي مكان دون مكان، وعلىٰ قوم دن قوم، وعلىٰ دول دون دول.

ويجد الفقيه ذلك في وقتنا الحاضر، لاسيّما بعد ثورات الربيع العِبْريّ، ما حدث في ليبيا، وسوريا، واليمن، والعراق، والسودان، وما يحدث من سنين في الصومال، حتىٰ أصبحت دولٌ كثيرة من وطننا الإسلامي أثرًا بعد عين، والنَّاس في غيّهم يعمهون، وفي ضلالهم يهلكون ويتزلْزلُون، فهم إلىٰ ربهم لا يرجعون.

فقد كثر القتل والموت والبلايا والأمراض والفتن والمصائب العظام، وما حدث مؤخرًا من وباء الكورونا، وعشرات الآلاف والمئات من الموتىٰ بسببه، والخراب الاقتصادي، وغلق المساجد وزوال الدعوة إلىٰ اللَّه سنين بسبب الكورونا، وخوف النَّاس وفقرهم وتعطل مصالحهم ومع ذلك فإنَّ النَّاس غالبهم لا يفقهون، لا يدركون، لا يعون، فهذا بيان للنَّاس، وكشف عن علل وأسباب ما يحدث للمسلمين والعالم أجمعين، فماذا بعد؟!

فهل أنتم منتهون؟! منتبهون؟! هل أنتم حذرون؟! لبيبون؟! وكما بدأت مقالتي هذا بقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فأختم كلامي بالتدبّر في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؟! [نوح: ١٣].

قال شيخ المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٢٩/ ٩٩- ١٠١):

«اختلف أهل التأويل [يعني: أهل التفسير]، في تأويل ذلك؛ فقال بعضهم: ما لكم لا ترجون للَّه عظمة؟ [٣٥٠٩٧] حدثني . . . عن ابن عباس يقول: عظمة.

[٣٥٠٩٨] حدثنا . . . عن مجاهد قال: لا ترون للَّه عظمة، وفي لفظ:

لا تُبالون للَّه عظمة.

[٣٥٠٩٩] حدثنا . . . . . عن سفيان مثله.

[٣٥١٠٣] حدثنا . . . . عن مجاهد: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قال: لا تبالون عظمة ربّكم، قال: والرجاء: الطمع والمخافة.

وقال آخرون معنىٰ ذلك: لا تعظمون اللَّه حقّ عظمته.

[٣٥١٠٤] حدثنا . . . . عن ابن عباس قال: ما لكم لا تعظمون اللَّه حق عظمته؟!

[٣٥١٠٥] حدثنا . . . . عن ابن عباس يقول: ما لكم لا تعلمون للَّه عظمة؟!

[٣٥١٠٦] حدثنا . . . . عن قتادة: أي عاقبة؟، لا ترجون للَّه عاقبة؟

وقال آخرون بل معنىٰ ذلك: ما لكم لا ترجون للَّه طاعة؟

[٣٥١٠٨] حدثني . . . . قال ابن زيد: الوقار الطاعة.

[قال ابن جرير:]

«وأولىٰ الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: ما لكم لا تخافون للَّه عظمة؟ وذلك أنَّ الرجاء قد تضعه العرب إذا صحبه الجحد في موضع الخوف». اهـ.

قلت: ومنهج الأصوليين في تفسير اللفظ الشمول والعموم ما لم يخالف اللغة والشرع، فكل ما قالوه في معنىٰ الآية محتمل فيكون المعنىٰ: ما لكم لا تعظمون اللَّه؟ ولا تبالون له وقارًا وخوفًا ولا تطيعونه فيما أمركم به ونهاكم عنه؟ وما لكم لا تعظمون حدوده وشعائره؟ وما لكم لا تمتثلون أوامره وتجتنبون نواهيه؟! وهو الكبير المتعال؟ القاهر الغالب؟ الجبار المتكبر؟ القوي العزيز؟ ألا تخشون عذابه؟ ومكره؟ واستدراجه؟ وسخطه عليكم؟! فإنّه من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، ولا حول ولا قوة إلَّا باللَّه.

واللَّه المستعان وعليه التكلان، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

الباحث الشرعي الدكتور عيد أبو السعود الكيال